الأدب ووحدة الثقافة العربية

بقلم الدكتور عبدالله عبدالدائم

لعل الادب ـ من بين مظاهر الحضارة الاخرى ـ احفلها تعبيرا عن شخصية الامة وهويتها القومية . لا بوصفه مرآة لتلك الشخصية فحسب . ولكن بوصفه اعمق اداة لخلقها وتجديدها ايضا . ان سائر قسمات الحضارة ، من علم واقتصاد وعمران وسواها ، نتاج لابداع الامة وعبقريتها وقدرتها على تسخير الطبيعة للانسان . أما الادب ـ ومعه الفن والفلسفة ـ فهو الذي يكشف عن الملامح الذاتية الخاصة للامة حاملا منه نظرتها الى الكون والوجود وتصورها لدور الانسان فيهما . انه وعي الامة لحقيقتها ورسالتها ، وانه الدور المشع عبر العصور يختزن معه كل يوم رؤاها العميقة وصبواتها المتشوفة المتجددة وطموحها الخلاق الى ابداع مصيرها ومصير الانسان عامة .

وهو اذ يفعل ذلك ، يندس في أعماق الشعور ، بل في اقاصي اللاشعور ، ويحفر مجراه في النفوس عارما قويا باقيا لا تزعزعه الغواشي ولا تنال منه الاحداث . أصالة الامة ثاوية أولا في أدبها . لانه تعبير عما تنفرد به . ولان اداته اللغة القومية التي تحمل معها دوما فلسفة الامة وتجربتها، ولان ميدانه الجماهير الواسعة العريضة، يغذيها ويغتذي بها ، ويرفدها وترفده ، ويحيا بها ومنها. والادب العربي من أكثر الآداب العالمية التصاقا بهوية الامة وأصالتها ورسالتها لا لانه أدب غني وحسب ، بل لانه كان وما يزال أبرز ما اختصت به الامة العربية منذ بداية تاريخها حتى اليوم .

وليس من قبيل الطرفة أن نروي ما أثر عن ابن المقفع في هذا الشأن :

جاء في « الامتاع والمؤانسة » لابي حيان التوحيدي ما يأتي :

« قال شبيب بن شبة : انا لوقوف في عرصة المربد ـ وهو موقف الاشراف ومجتمع الناس وقد حضر أعيان المصر ـ اذ طلع ابن المقفع ، فما فينا أحد الا هشّ له وارتاح الى مساءلته . ثم اقبل علينا فقال : اي الامم أعقل ؟ فظننا انه يريد الفرس . فقلنا : فارس أعقل الامم ، نقصد مقاربته ونتوخى مصانعته . فقال : كلا ، ليس ذلك لها ولا فيها، هم قوم علموا فتعلموا ، ومثل لهم فامتثلوا واقتدوا ، وبدئوا بأمر فصاروا الى اتباعه ، وليس لهم استنباط ولا استخراج . فقلنا له : الروم . فقال : ليس ذلك عندها ، بل لهم ابدان وثيقة ،وهم اصحاب بناء وهندسة لا يعرفون سواهما ولا يحسنون غيرهما . قلنا : فالصين. قال : أصحاب آثاث وصنعة ، لا فكر لها ولا روية . قلنا : فالترك . قال : سباع للهراش . قلنا : فالهند . قال : اصحاب وهم ومخرقة وشعبذة وحيلة . قلنا : فالزنج . قال : بهائم هاملة . فرددنا الامر اليه . قال : العرب . فلاحظنا وهمس بعضنا الى بعض . ففاظه ذلك منا وامتقع لونه ثم قال : كأنكم تظنون فيّ مقاربتكم ، فوالله لوددت ان الامر ليس لكم ولا فيكم ، ولكن كرهت ان فاتني الامر ان يفوتني الصواب . الى ان يقول : « ان العرب ليس لها اول تؤمه ولا كتاب يدلها . أهل بلد قفر ووحشة من الانس ، احتاج كل واحد منهم في وحدته الى فكره ونظره وعقله ... » . وبعد أن يبين كيف قادهم ذلك الى تنظيم أمور معاشهم وحياتهم وابتكار آدابهم وعلومهم ، ينتهي الى القول : « وجعلوا بينهم (يعني العرب) شيئا ينتهون به عن المنكر ، ويرغبهم في الجميل ، ويتجنبون به الدناءة ويحضهم على المكارم . حتى أن الرجل منهم وهو في فج من الارض يصف المكارم فما يبقي من نعتها شيئا ، ويسرف في ذم المساوىء فلا يقصر . ليس لهم كلام الا وهم يتقاضون به على اصطناع المعروف ثم حفظ الجار وبذل المال وابتناء المحامد . كل واحد منهم يصيب ذلك بعقله ، ويستخرجه بفطنته وفكرته ، فلا يتعلمون ولا يتأدبون ، بل نحائز مؤدبة وعقول عارفة ، فلذلك قلت لكم : انهم أعقل الامم لصحة الفطرة واعتدال البنية وصواب الفكر وذكاء الفهم » .

ليس قصدنا من رواية هذا الحديث أن نفاضل بين العرب وسواهم وأن ندعي لهم السبق والفضل على من عداهم ، فنحن ننكر مثل هذا المذهب في مديح أمة وتجريح سواها . غير اننا نؤمن ـ ونؤمن معنا الدراسات الحديثة ـ ان ثمة خصائص تميز امة من امة كالخصائص التي تميز طباع الافراد بعضها من بعض . وليس في ذلك حكم قيمة وتفضيل لخاصة على أخرى وبالتالي لامة على اخرى ، بل تقرير لواقع ووصف لحقيقة . ومثل هذا المعنى هو الذي ينتهي اليه صاحب « الامتاع والمؤانسة » اذ يقول معقبا على كلام ابن المقفع :

« فلكل امة فضائل ورذائل ، ولكل قوم محاسن ومساو ، ولكل طائفة من الناس في صناعتها وحلها وعقدها كمال ونقصير . وهذا يقضي بأن الخيرات والفضائل والشرور والنقائص مفاضة على جميع

الخلق ، مفضوضة بين كلهم . فللفرس السياسة والاداب والحدود والرسوم ، وللروم العلم والحكمة ، وللهند الفكر والروية والخفة والسحر والاناة ، وللترك الشجاعة والاقدام ، وللزنج الصبر والكد والفرح ، وللعرب النجدة والقرى والوفاء والبلاء والجود والذمام والخطابة والبيان » .

على اننا حين نذكر ان الادب هو السمة الغالبة التي امتازت بها الامة العربية لا نعني بذلك ان نعاود خطأ شائعا ، وهو ان المنازع العلمية التجريبية بعيدة عن عطاء العرب وحضارتهم . فنحن نؤمن ان اهم ما تتصف به الحضارة العربية انها استطاعت ـ ولا سيما في أوج ازدهارها ـ أن تجمع جمعا وثيقا بين المنازع الادبية الفكرية وبين المنازع العلمية التجريبية ، في حين اقتصرت الحضارة اليونانية كما يقول راندال ، في كتابه عن « تكوين العقل الحديث » على النتاج الفكري والفلسفي ، ودار فيها العقل حول ذاته بدلا من أن يدور حول الاشياء . وحسبنا دليلا على ذلك « بيت الحكمة » في بغداد وعطاؤه العلمي وأبحاثه التجريبية ، الى جانب العطاء الادبي والفكري الذي نعرف . وهذا المنزع العلمي التجريبي لدى العرب ـ الذي ولد الحضارة الحديثة في الغرب ـ هو الذي يحلو لكاتب مثل « فانتيجو » ان يدعوه باسم المعجزة العربية .

وبعد ، هذا حديث ذو شجون قد يذهب بنا بعيدا وقد ينأى بنا عن مقاصد بحثنا . ولعل خير ما نفعل للتدليل على صحة ما قدمنا من قول حول الالتحام العميق بين الادب وحياة العرب ونظرتهم الى العالم ، أن نتقرى بعض صفحات الادب العربي في ماضيه وحاضره ، وان نرى خاصة كيف عبر هذا الادب عن ثقافة موحدة وكيف كان في الوقت نفسه أداة لتوحيد الثقافة .

وهنا نود ـ رغبة منا في جمع شتات مثل هذا البحث الواسع الشائك ـ أن نتحدث عن هذه الصلة بين الادب ووحدة الثقافة العربية خلال فترتين من فترات حياة الامة العربية ، فنتحدث أولا عن دور الادب في وحدة الثقافة العربية ، بل وفي سلامة الامة العربية وحفظها ، بعد تداعي الدولة العربية الاسلامية على يد الاعاجم حتى بواكير الغزو الاستعماري الغربي . ونتحدث بعد ذلك عن دور الادب في وحدة الثقافة العربية في العصور الحديثة منذ بواكير النهضة العربية في مطلع القرن التاسع عشر حتى اليوم ، ثم نخلص من هذا الى ايضاح مفهومنا للدور الذي ينبغي أن يلعبه الادب في المستقبل من أجل توطيد وحدة الثقافة العربية وتعميق مجراها واغناء عطائها .

فنحن في هذا لا بد أن نقتصر على عرض خاطف سريع ، فشعاب البحث كثيرة هيهات أن تفي بها أسفار برأسها .

أما دور الادب في وحدة الثقافة العربية في عصر تكونها في الجاهلية والاسلام وفي عصور ازدهارها أيام بني امية والعباس فندعه جانبا لاتساع أبعاده ونطاقه ولان شأنه بين لا يحتاج الى فضل من ايضاح .

أولا ـ الادب ووحدة الثقافة العربية أيام انحطاط الدولة العربية :

لا بد من التنبيه أولا ان عصر الانحطاط هذا متصل بما قبله موصول بما بعده ، وان فصلنا له هو من باب تيسير الدراسة والبحث . كذلك لا بد من التنبيه ان ما يدعى باسم عصر الانحطاط عرف في الحقيقة ومضات مشرقة ، وعرف يقظات سياسية نامية هنا وهناك في أرجاء الوطن العربي ، وحمل في أعماقه بذور النهضة التي تلته . ولم يكن عصر الانحطاط سباتا وركودا كله ، بل كان اقرب ما يكون الى عصر انتظار وترقب وحفز تنضج فيه التجربة العربية من خلال الالم ومرارة الهزيمة العسكرية ، وتقيم في الاعماق قواعدها المتطلعة الى الانبعاث .

وههنا أيضا نكتفي بالقليل ، محاولين الاقتصار على جوهر الامر ، وجوهر الامر عندنا ان الامة العربية حين غلبت على يد أخلاط المغول والترك والتتر ، ولا سيما بعد سقوط بغداد عام ١٢٥٨ هـ.هزمت عسكريا ولم تهزم ثقافيا . ولقد كان ارتيادها المستمر لمعين أدبها وما يحمله من تعبير عن هويتها القومية وعن قيمها التي تدين بها ، أهم عامل في الابقاء على وجودها وفي مقارعتها للدخلاء ومناهضتها للغزاة . لقد ظلت المعاني التي حملها الادب العربي في العصور الخالية شائعة لدى أبناء الامة في جميع أقطارهم في فترة التقهقر هذه ، يفتنون بها ويستمدون منها شعورا بالاصالة وبوحدة الارتباط ووحدة المصير ، ويمتاحون من خلالها العزم على الانبعاث والنهضة . وأهم ما في الامر ان تلك المعاني الادبية لم تكن شائعة لدى الصفوة من المتعلمين وحدهم ، بل كانت حظا مشتركا بين ابناء البلاد العربية ، على اختلاف حظوظهم من الثقافة . كانت تلك الاداب تنقل من الآباء الى الابناء ، ويتناقلها جيل عن جيل ، وتنبث في معاهد التعليم على اختلاف مستوياتها ، كتاتيب أو مدارس ، وتشيع في دور العلم غير النظامية ، كمجالس العلماء ودور الوراقين والمساجد والزوايا والربط وسواها . كانت الاجيال تأخذها كابرا عن كابر ، وفي كل دنيا العرب ، شامخة حاملة لتراث واحد وقيم واحدة ومنازع واحدة ، مكونة مواقف وأنماطا من السلوك واحدة ، أي ثقافة واحدة .

الاشعار التي تروى والامثال التي تتداول والحكم التي تتبادلها الالسن والاقوال المأثورة التي تسير بها الركبان ، كانت كلها ثروة من الفكر الموحد والقيم الواحدة . تشد أبناء الامة العربية بعضهم الى بعض وتلف الاقطار العربية كلها باطار من الشعور بالانتساب الى الاصل الواحد والانتماء الى المحتد الاصيل .

لقد كانت لقاء عبر الحدود والسدود ، ومن وراء الضغط والاكراه ، تجمع الامة العربية على كلمة واحدة وتزودها بما يشد من عزيمتها ويلهب آمالها ويذكي نضالها .

وهل نحتاج الى الشواهد وهي اكثر من الكثير ؟

مآثر الجاهلية الذائعة في حكم زهير وأوابد امرىء القيس وعنترة والنابغة والاعشى وسواهم ، وأقوال الاعراب المنثورة وأمثالهم ، وسوى ذلك كثير تظل عبر القرون تنبث في ذاكرة الاجيال تمتاح منها الكثير من أخلاق العرب الاصيلة من كرم ونجدة وشجاعة ووفاء بالعهد ورعاية للجار ونصرة للمظلوم .

وادب الدعوة الاسلامية ينقل الى الاجيال صفحات من روح الاسلام وجهاده في سبيل نشر القيم العربية الانسانية الخالدة . والاقوال المأثورة عن الصحابة والخلفاء الراشدين وسواهم من بناة الوثبة الاسلامية العربية تطبع في النفوس معاني الرسالة التي أوكلها الاسلام للعرب ، والاخلاق العربية التي بعث الرسول ليتممها ، وتعمل على خلق بنيان نفسي موحد وتربة فكرية متكاملة .

والاحاديث الشريفة تعلم الجهاد والنضال ومكارم الاخلاق ، وترسم سبل السلوك والعمل ، وتذيع بين أفراد الامة تبني شخصيتها المتماسكة وسلوكها الموحد . والقرآن الكريم ـ كتاب العربية الاكبر ـ يأسر باعجازه وبلاغته ولسانه العربي المبين نفوس العرب ، ويجمعهم على كلمة واحدة وقيم واحدة ، ويؤلف بين قلوبهم ، ويحيل وجودهم وجودا انسانيا شاملا ، ويجعل منهم أمناء على نظرة واحدة ، حملة لمنطلقات واحدة ، روادا لبناء عالم انساني جديد ، ويحفظ فوق هذا وقبل هذا لغتهم القومية ويغنيها ويتخذ منها الاداة الاولى لوحدتهم الحافظة لكيانهم الحاملة لرسالتهم .

والتراث الادبي في العصر الاموي ـ شعره ونثره ـ يذكي روح العروبة ويجند العصبية العربية في بناء الدولة الجديدة ويسجل خطوات العرب في انطلاقهم نحو الفتح المادي والمعنوي ونحو العمران الحضاري .

وادب العصر العباسي وما بعده ـ أيام ازدهار الدولة العربية الاسلامية ـ يسجل نضال الامة العربية في سبيل الابقاء على هويتها

أمام هجمات الشعوب الاخرى ، ويعطي الصورة السليمة لمزج الثقافة العربية بالثقافات الاعجمية ، ويرد دعاوى الشعوبية ، ويبرز من جديد شأن العرب ودورهم وقيمهم وأخلاقهم . وهيهات أن نوفي هذا التراث الادبي الموحّد الموحّد بعض حقه في مثل هذا المقام . ووراء ما ذكرنا اجواء وآفاق فسيحة من الادب العربي الذي ذاع وشاع بين الجماهير في شتى الاقطار العربية وأشاع معه مواقف ونظرات ومثلا قويةالوشائج، مفصحة عن أصالة الامة العربية وخصائصها ، باعثة على امتطاء طريق واحدة للعمل والبلاء .

واذا كانت الثقافة تعني في نهاية الامر ـ كما تبين الدراسات الانثروبولوجية والاجتماعية الحديثة ـ انماط لسلوك الشائعة لدى شعب من الشعوب ، سواء كانت مادية أو معنوية ، فلا شك ان أنماط السلوك لدى الانسان العربي قد صاغتها الاداب العربية صياغة واحدة متينة أصيلة ، جعلت من الوجود العربي جسدا واحدا يختلج وينشط مؤتلفا متسقا متناغما .

لقد أوجد الادب ضربا من الشعور الجماعي ، بل من اللاشعور الجماعي ، وتغلغل الكيان العضوي للفرد العربي أنى كان وخالط منه اللحم والدم ، ووسمه بسمات واحدة ونظرات جامعة تنبثق من الاعماق في كل مناسبة لتردّه الى أصوله وجذوره مهما تآمر عليه الاحداث .

* * *

ولقد استطاعت هذه الثقافة الادبية العربية الموحدة ، أشعارا وأمثالا وأقوالا مأثورة وحكما وأقاصيص ونصوصا أدبية وأحاديث شريفة وآيات ، ان تبقى خاصة على هوية الانسان العربي في عهود الغلبة الاجنبية ، ولا سيما بعد الغزو الاستعماري الاوروبي ، وان تكون لديه قيما متماثلة ونظرات متشاكلة وعزيمة موحدة في سبيل الخلاص من أثقاله والانطلاق نحو تجديد رسالته . انها الى جانب التراث الاسلامي في تمامه وكماله ، بل عن طريق التضامن الكامل بينها وبينه ، حفظت الشخصية العربية من الضياع وانقذتها من مخاطر الاغتراب والاستلاب الثقافي ، وجعلتها قادرة على مقاومة ما تعرض له المجتمع العربي لا سيما بعد غزو الاستعمار من أخطار تهدد قيمه وبنيانه وتاريخه ، بل تهدد وجوده . وهنا لا بد من كلمة حق تقال وهي ان الذي وفر الحماية الثقافية والحماية القومية السياسية بالتالي للوجود العربي بعد غزوات الاستعمار الغربي خاصة منذ ايام الحملات الايبيرية حتىغزوات الاستعمار الحديث ، لم يكن كما قد يخيل للمرء اولئك المثقفين الذين اغتذوا بالثقافة الاجنبية وحاولوا نقلها الى أوطانهم . فبعض هؤلاء المثقفين كثيرا ما خدعوا ببريق الثقافة الغربية الوافدة وبقيمها المحدثة خداعا أنساهم في كثير من الاحيان جذورهم واصولهم العريقة . بل ان فريقا منهم لم ينج من أن يكون لعبة في يد المستعمر يجنده في معركته الضارية ضد الوجود العربي ، تلك المعركة التي وعى المستعمر منذ البداية انها لن تفلح سياسيا وعسكريا اذا لم تفلح ثقافيا ، أي اذا لم يتم اقتلاع الانسان العربي من تربة ثقافته القومية تمهيدا لاقتلاع شخصيته المستقلة ولذوبانه في شخصية الغازي . لقد أراد الاستعمار اولا وقبل كل شيء ـ ومحاولته العنيدة في المغرب العربي اكبر شاهد على ذلك ـ أن يخلق لدى الانسان العربي اكبارا لثقافة الاجنبي المحتل يوازيه ازراء بالثقافة العربية، ووعى بوضوح ان النصر العسكري والسياسي لن يتاتى له الا اذا حقق النصر الثقافي . هذا الهدف الاستعماري أيدت جهوده مع الاسف فئات مثقفة في البلاد العربية ـ عن وعي منها أو عن غير وعي ـ حسبت ان تخلف البلاد العربية مرده الى تخلف ثقافتها وقيمها ، وان سبيل التقدم هو اصطناع الثقافة الغربية والمعايير الغربية .

ومن هنا فان الذي حفظ الثقافة العربية حقا من الضياع والاضمحلال ، وحفظ الوجود العربي كله ، لم يكن المثقفين بالدرجة الاولى ، بل كان جمهرة الناس من أبناء الامة العربية الذين تختلف حظوظهم الثقافية دون شك ويختلف نصيب كل منهم من ثقافته العربية، غير انهم جميعهم رضعوا الى حد كبير من معين تراثهم القومي المشترك وأدبهم العربي الموحد .

نقول هذا ونحن ندرك أن فريقا من المثقفين قيض لهم أن ينجوا من هذا التشويه والانحراف الثقافي ، وعرفوا كيف يستمدون من ثقافة الاجنبي ما يردهم الى جذورهم وما يوظفونه في خدمة ثقافتهم وأمتهم وما يحاربون به الدخيل عن طريق سلاحه نفسه .

والحق ان مقارعة الاحتلال الاجنبي لجأت في كثير من الاحيان الى سلاح الثقافة العربية الاصيلة وجعلت وسيلتها احياء الاداب العربية والتراث العربي . فكما ناهض المجتمع العربي في العصور القديمة الهجمات الشعوبية عن طريق احياء الاداب العربية وبيان مآثر العرب في الجاهلية وما بعدها ، فعلة الجاحظ وابن قتيبة وسواهما ، قارع المثقفون المؤمنون بأمتهم الاحتلال العثماني ، ومن بعده الاحتلال الغربي ، عن طريق نشر الثقافة العربية واحيائها . هذا ما فعله الشيخ طاهر الجزئري في دمشق ، وما فعله ابراهيم اليازجي والشيخ عبد القادر الاسير وبطرس البستاني وحسن بيهم في لبنان فيمحاربتهم للعثمانيين ، وهذا ما فعله « العلماء » في الجزائر وما فعله كثير سواهم في سائر ارجاء الوطن العربي من أجل محاربة الاستعمار الحديث .

ثانيا ـ دور الادب في وحدة الثقافة العربية في العصور الحديثة :

العصور الحديثة في التاريخ العربي نجد بذورها كما قلنا في مرحلة الانحطاط نفسها التي لم تخل من ومضات وخلجات انبعاثية . وهنا أيضا لا نستطيع أن نفصل هذه العصور عما سبقتها وأن نضع لها حدودا زمنية دقيقة . ولعل حملة نابليون على مصر في مطلع القرن التاسع عشر احدى الصور الهامة التي تشير الى بداية تلك العصور .

على انه ليس من شأننا أن نتحدث حديثا تاريخيا عن تلك العصور وأن نبين عوامل نشأتها وخصائصها . والذي يعنينا أن نتحدث عن سماتها الادبية . وأبرز سمة أدبية لتلك العصور ظهور آداب المحدثين فيها الى جانب آداب القدامى ، واتصال المحدثين هؤلاء بالتجربة الادبية العالمية .

وظهور أدب المحدثين هذا الى جانب الآداب العربية القديمة طرح في قوة وقسوة مسألة الصراع بين القديم والحديث ، وبتعبير أوضح طرح الصراع بين الاتجاهات الادبية التي سقت جذورها أولا وقبل كل شيء من الآداب الاجنبية وبين الاتجاهات التي ظلت تنهل من معين الآداب العربية القديمة .

واذا توخينا الايجاز المفرط في هذا المجال قلنا ان الادب العربي الحديث ترجّح في الواقعبين تيارات ثلاثة أساسية :

أولها ـ التيار الذي يسقي معظم عطائه ونتاجه من الادب العربي القديم ويحاول احياء التجربة الادبية العربية احياء حرفيا عن طريق الرجوع الى مظانها الاصيلة عن طريق نشر تلك المظان واشاعتها .

وثانيها ـ التيار الذي أعرض عن الادب العربي والثقافة العربية القديمة واستهتر بهما ، بل عمل على

الازراء بشأنهما ، سعيا الى نشر قيم الحضارة الغربية الوافدة والى تقليد أساليبها وفنونها الادبية . ويرتبط بهذا التيار تيار الادب المحلي الاقليمي الذي حاول أن ينسلخ عن ربط الثقافة في بعض الاقطار العربية بالثقافة العربية وأن يربطها في آن واحد بالثقافات التاريخية القديمة والثقافات القطرية المحلية والثقافات الاجنبية .

وثالثها ـ التيار الذي حاول مزج الثقافة العربية بالثقافة الاجنبية فاصطنع لغة العصر الحديث وأساليبه المحدثة في نشر الثقافة العربية القديمة وفي ابداع ثقافة عربية جديدة تستقي موضوعاتها من التراث العربي في الماضي أو من حياة المجتمع العربي في الحاضر .

ولن نتريث عند كل واحد من هذه التيارات الثلاثة. فالحديث عن مثل هذا لن يتسع له هذا المقام . وحسبنا أن نقول ان التيار الذي مكن لنفسه واستطاع أن يحيا ويتطور هو التيار الثالث ، تيار المزج بين الثقافة العربية والثقافة الاجنبية . أما التياران الآخران فلا نقول انهما زالا وانقرضا ، فهما ما يزالان قائمين حتى اليوم . غير انهما فقدا القدرة على التأثير وعاشا ويعيشان الى حد كبير في عزلة عن جملة الجو الثقافي الذائع لدى جمهرة أبناء الامة العربية . على ان هذا التيار الثالث نفسه ، تيار المزج بين القديم والحديث ، كان وما يزال مراتب ودرجات وأنواعا . ومن المفيد أن نرصد بايجاز تلك المراتب والانواع ، لان في ذلك دليلا يهدينا الى ما نريد لمستقبل الثقافة العربية .

فالجمع بين القديم والحديث أخذ أحيانا مظهر الاضافة والضم . بمعنى أنه جمع بين وجهين من أوجه الادب ، الادب العربي والادب العالمي الحديث . جمعا حفظ لكل منهما هويته وطابعه دون أن يستطيع اقامة اللحمة اللازمة بينهما ودون أن يتمكن في النهاية من توليد ادب عربي الطابع والموضوعات حديث الاسلوب والنهج . لقد كان هذا النوع من الادب يعرض صورتين من الادب ، الادب العربي والادب الاجنبي ، دون أن يقوى على استخراج مركب جديد ، اصيل وحديث معا .

وفي أحيان أخرى أخذ هذا المزج بين القديم والحديث مظهرا آخر ، مظهر أدب يحاول في ظاهر الامر أن يعالج مشكلات الانسان العربي والمجتمع العربي ولكنه في الواقع ـ تأثرا منه بالآداب الاجنبية وجهلا منه لحقيقة مشكلات المجتمع العربي ـ أثار في معظم الاحيان مشكلات لا تنتمي حقا الى واقع هذا المجتمع . بل هي مشكلات منقولة مجلوبة أراد أن يحملها الوجود العربي بل أن يفرضها عليه .

وراء هذا وذاك قام جهد أصيل للمزج بين القديم والحديث ، انطلق أولا من الواقع العربي ومن مشكلاته وهمومه ، واصطنع للتعبير عنها كل ما يقربه من ذلك ، ولا سيما الاساليب الحديثة في الفنون الادبية . لقد سقي أصحاب هذا الاتجاه من معين التراث ومن نبع الواقع العربي ، وعرفوا حياة المجتمع العربي ومشكلاته ، وعاشوا مع الجماهير العربية في همومها ونضالها وتطلعاتها ، وصاغوا تجربتهم العربية الطابع في اطار أدب أصيل لا تبدو عليه آثار العجمة وان يكن قد اغتذى وارتوى من لبان الادب العالمي .

وهذا النوع الثالث من مزج القديم بالحديث أو التالد بالطريف أو الاصيل بالمحدث ، هو الذي يعنينا أمره ، لانه التعبير السليم عن الصيغة المرجوة لوحدة الثقافة العربية . ولا نقصد بهذا القول ان هذا النوع من الادب قد نجح نجاحا كاملا في مهمته ، وانه لم يتعثر في مشيته هذه ، ولم يترجح بين التيارات الاخرى أحيانا . فالادب العربي الاصيل الحديث الذي ننشد هو تجربة موصولة قطعت شوطا كبيرا ولكن أمامها أشواطا ، بل أمامها ما لا حدّ له ولا نهاية من الجد والكد في سبيل توليد أدب ذي قوام عربي وذي قدرة على الخلق والابداع الانساني . وأهم سمة تسم هذا الادب بل تكوّن معادلاته، هي التصاقه بالجماهير وتعبيره عن حياة الشعب العربي وتطلعاته ، في كتله العريضة وجموعه الكبيرة .

ولا نغلو اذا قلنا ان الانواع الاخرى من مزج الثقافة، ومن ورائها التياران اللذان أشرنا اليهما ، تيار قديم القديم وتيار الحديث المجلوب ، كانت في معظم الاحيان من صنع طبقة من الادباء أرستقراطية النشأة أو العقلية ، كما كانت موجهة في كثير من الاوقات الى علية القوم من أمراء وحكام وحفنة ثقافية محدودة . ومن هنا لم تستطع تلك الطبقة ، رغم ثقافتها المزدوجة أحيانا ، القديمة والحديثة، أن تولد أدبا أصيلا يعبر عن واقع المجتمع العربي ويتقرّى حاضره أملا في بناء مستقبله . لقد افتقدت هذه الانواع من الادب غالبا مصدر وحيها الاصيل ، حين لم تعرف جماهير الشعب العربي ولم تحي معها همومها وتطلعاتها. بل لقد كانت النظرة المستترة وراء نتاج هذه الطبقة ، النظرة الى الادب بوصفه متعة أو حيلة أو براعة في اللفظ أو اكثارا من الطرف والنوادر . لم يكن أدب تلك الفئة مدفوعا بوعي الجماهير موجها اليها ، بل كان الى حد كبير أدب المتأنق اللاهي ، يطرب للكلم الجميل ويطرب به، ويأنس بالغريب أيا كان شأنه ومصدره ، ويؤثر التعالم والتفيهق على التأثر بحياة الشعب والتأثير فيها . قلما كانت تلك الفئة تطرح على نفسها هذا السؤال الذي لا يكون أدب حق بدونه : لماذا نكتب ولمن نكتب ؟ ولعل الكتابة عندها غاية في ذاتها ، ليس لها معيار الا معيار الجمال التشكلي والرونق المعجب . لقد كان الادب لديها الهية ، وكان المبنى مقدما على المعنى ، وكانت تركب المركب السهل ، مركب اللعب اللفظي الذي ساد أيام انحطاط الدولة العربية .

غير ان مثل هذا الطراز من الادب المترف ما لبث حتى فقد شأنه وبطل دوره بعد تغير المجتمع العربي

وتطوره ، وبعد أن اصبحت القضية الاولى في حياة العرب قضية البناء الاجتماعي وخلق الكيان العربي المستقل النامي المتحرر من أثقال أوضاعه الاجتماعية والاقتصادية السيئة . ومن هنا نشأ ذلك النوع الحي من الادب ، الادب الذي يبحث عن الاصالة والجودة والابداع في أعماق حياة الجماهير العربية وفي حرارة انطلاقتها نحو بناء مجتمع جديد . بل لقد كان هذا التيار الجديد في الادب من القوة والزخم بحيث أكره الانواع الاخرى من الادب على تأثر خطاه وان لم تفلح في ذلك الا ظاهرا .

ان الثقافة العربية في العصور الحديثة التي عرفت غزو المستعمر وغزو الثقافة الدخيلة ، وعرفت الصراع بين الامة العربية وبين أعدائها ، وأخذ فيها النضال القومي صورة النضال ضد الاستعمار والتخلف معا ، نقول ان الثقافة العربية في العصور الحديثة لم تعد تعني ـ كما كانت من قبل ـ مجرد احياء التراث العربي وجلائه وبيان مواطن الابتكار والقوة فيه ، كما لا تعني أيضا الاستلقاء المسترخي في أحضان الثقافة الاجنبية . لقد أصبح للثقافة العربية الاصيلة تعريف واحد لا ثاني له وهو انها التعبير عن واقع حياة الامة ومشكلاتها وسعيها لبناء حياتها الجديدة . ووحدة الثقافة العربية بالتالي لم تعد تعني مجرد الانتساب الى تراث عربي قديم موحد له شأنه وقيمته دون شك ، كما لا يمكن ان تعني ارتداء ثوب الثقافة الغربية ، بل أصبح قوامها ذلك الادب الذي امتد من المحيط الى الخليج ، يجلو حياة الشعب العربي ويعبر عن مشكلات المجتمع العربي ويرسم طريق الخلاص للامة العربية .

وتلكم هي سمات الادب الاصيل في كل عصر ومصر . انه لا يستطيع أن ينسلخ عن حرارة مشكلات مجتمعه . ولا يستطيع أن يملك مفجرات الابداع ودوافع الخلق الادبي اذا هو لم يحي عصره ولم يعش هموم شعبه ولم يشارك في تطلعات أمته وصبواتها ، بل اذا هو لم ينصدر المعركة . ويرهص بما هو آت ويتحسس قبل سواه دفقة التيارات العميقة التي تثور في أعماق الامة وتحركها نحو عهد جديد ، أوليس الاديب والفنان أصلا وجوهرا من كان أقدر على تحسس مشاعر الناس الدفينة قبل انبجاسها وعلى التعبير عن تطلعاتهم الخفية قبل ظهورها والارهاص بمستقبلهم الذي يومىء اليه حاضرهم ؟ أوليس الاديب أشبه بميزان حساس يهتز للتيارات الخفية وينذر بوجودها ويخرجها من حال الوجود بالقوة الى حال الوجود بالفعل ؟ واذا كان الادب مرتبطا ـ كما يحلو لبعضهم أن يقول ـ بعواطف الاديب الذاتية واحاسيسه الداخلية ، أفيمكن الفصل ـ وعلم النفس يشهد على ما نقول ـ بين ذات الاديب وذات المجتمع الحالة فيه ؟ أوليست الانا الفردية والانا العليا ـ على حد تعبير أصحاب التحليل النفسي ـ مرتبطين ارتباطا عضويا بحياة الجماعة وتربتها وثقافتها ؟ وهل هنالك عواطف وأحاسيس انسانية معلقة بين السماء والارض ، مفصولة عن هواء مجتمع قومي وانساني معين ؟

نقول هذا وفي ذهننا تلك النظرة التي توحد بين القومية والانسانية وترى في التربية القومية المكان الطبيعي لتفتح المشاعر الانسانية . والانسان عندها لا يكون انسانا حقا ان لم يكن أولا ابن قومه وأمته ، ولا يكون شيئا اذا لم يكن أولا من هو . أي ذلك الانسان الذي اختلط وجوده بوجود أمته ، وأطلّ من خلال ذلك الوجود على الوجود الانساني كله . هذا هو الدرس الذي تعلمنا اياه الحضارة العربية وتعلمنا اياه أي حضارة . ان أي حضارة لا تعطي للانسانية اذا لم تع ذاتها وخصائصها لتسهم من خلال ذلك في العطاء الانساني .

وتحضرني بهذه المناسبة بعض أقوال الشاعر القروي . لقد عبّر أصدق تعبير عن هذا الالتحام بين القومية والانسانية حين بيّن ان الاولى طريق الثانية وان الحديث عن نزعة انسانية مفصولة عن الجذور القومية لا يعدو أن يكون ضربا من اللهو أو ضربا من التضليل ، ان لم يكن تعبيرا عن خور وضعف . فالنزعة الانسانية المجردة الخلوة من دمها الحي ، دم القومية ، بضاعة مجلوبة حاول الاستعمار أن يدسها في المجتمع العربي وفي سائر الدول الضعيفة من أجل الاستمرار في اذلالها والسيطرة عليها . وحتى شعار السلام ، وهو شعار رفيع الشأن ، ينقلب الى ضرب من الاستسلام عندما يدين به الضعفاء من دون الاقوياء . وعندما يكون السلام الذي يفرضه الغالب على المغلوب . يقول الشاعر القروي :

اما السلام فاننا اعداؤه حتى يدين بحبه أقوانا

ويقول أيضا :

أتيناهم بانجيل المسيح فجاؤونا بآيات الفتوح

ويعبر الشاعر القروي تعبيرا بليغا عن هذا المعنى في مقدمة ديوانه الشعري « الاعاصير » . ويذكر من يأخذ عليه غلوه في الشعر القومي انه لا يستطيع أن يجترح المعجزات فيري الازهار والورود في جو يسوده أزيز الرصاص ويعفره جو المعركة الدائرة بين الشعب العربي وبين المستعمر الدخيل .

وبعد ، هذا أيضا حديث ذو شجون ، ولعلكم تطمحون الى أن أحدثكم عن شواهد من ذلك التيار الادبي العربي الاصيل الذي عبر عن هموم المجتمع العربي وتطلعاته ، والذي عنت الحداثة والاصالة عنده العودة الى الاصول والينابيع ، أصول الوجود العربي في سرّائه وضرّائه ، في قلقه وطمأنينته ، في كرّه وفره ، في نضاله الموصول من أجل بناء كيان عربي جدير بحضارة الامة وتراثها ، قمين بحاضرها ومستقبلها .

غير ان هذا المطلب تقصر عنه مجلدات بكاملها ، ونخشى ان نحن اقتصرنا على القليل أن نغمط الموضوع حقه وأن نقع في تقصير مخلّ . وهنالك من بينكم ، وفي

الوطن العربي ، من هو اقدر منا على القيام بمثل هـــذه الدراسة التي نأمل أن يتوفر عليها أدباؤنا .

وحسبي أن أشير اشارات تلفرافية الى بعض مظاهر هذا التيار :

أدب المقاومة ، أدب الثورة الفلسطينية بعض منه ، وأدب الكفاح والنضال ضد المستعمر طرف من أطرافه ، والروايات والاقاصيص المعبـــرة عن أوضاع الشعـــب الاجتماعية القاسية أو عن تطلعاته حلقة من حلقاته ، وعطاء الشعراء الملتزمين بأمتهم ، المعبرين عن صبواتها ، المفصحين عن شؤونها وشجونها ، جانب من جوانبه ، وأدب المفكرين والمنظرين لحياتنا القومية والاجتماعية وجـه أصيل له ، والادب الشعبي الذي يحكي حياة المجتمع العربي وأجواءه واتراحه مظهر من مظاهره ، والادب الذي يعرف أن يسقي من تراث العرب الماضي بواعث الحاضر وان يصل ماضي الامة بمستقبلها شكل بارز من أشكاله ...

أما الاسماء التي عبرت عن هـــذا الادب فكثيرة استميحكم المعذرة ان عجزت عن تعداد بعضها في هـذه الفرصة المحدودة . ولعل من الصحيح بعد ذلك أن هـذا النوع من الادب تيار قبل أن يكون أسمـاء ، ولعلنا نجده مبثوثا في نتاج واسع عريض اكثر مما نجده متحلقا حول أسماء بعينها . غير انه في هذه الاحوال كلها قائم هناك ، يزكو وينمو ويشتد عوده بوما بعد يوم . انه في آن واحد تعبير عن وحدة الثقافة العربية بمعناها الصحيح والاصيل ، وبناء لهذه الوحدة الثقافية . وهل يقوى على توحيـــد الثقافة العربية الا أدب يمتـــاح ثراءه من وجود الامة ومطالبها وحاجاتها ؟ وهل ثمة ما يوجد الثقافة العربيـة غير هذا التيار الذي يقتحم الحلبـــة ويومىء بمستقبل الوجود العربي ؟ ولقد شق هذا التيار طريقه في الاقطار العربية جميعها ، وان يكن حظه من النمو يختلف من قطر الى قطر .

ان سائر التيارات الادبية في نظرنـا لا تستحق من المحلل لواقع الثقافة العربية أن يتوقف عندها . ان الذي يعبر عن حياة الامة الحقة دوما وأبـدا ليست التيارات الجانبية ، ولا الهوامش الشاذة ، ولا بقايا ومخلفات العهود الماضية ، ولا تخبطات ثقافة مغتربة ضلت وجودها وأخطأت مشيتها ، بل الذي يعبر حقا عن حياة الامة ووحدتهـــا التيار الفعال المحرك الذي يشق طريقه في ثبات وقوة ، ما دام موطىء قدمه واقع مجتمعه وتطلعات شعبه وصبوة أمتـــه .

قد يعيش الادب البعيـــد عن الاصالة في خزائن المكتبات ، أما الادب الذي يعيش في النفـوس ، ويحفر مجراه في العقول ، ويدخل القلوب قبـــل الآذان ، فهو الذي يعبر عن حاجة حقيقية ويجيب علـى تساؤلات حية ويستجيب لنداءات عميقة صادرة عن لجـة الجماهير ، لجة الحياة .

لقد قلنا ونقول ان قوى الابداع الضخمة والحقيقية في امتنا ثاوية في الجماهير المحرومة . وما الاشتراكية الا سبيل لتفتح قوى الابداع تلك ، عن طريق تحريرها من اغلال أوضاعها الاجتماعية والاقتصادية السيئة التي تقتل قوى الابداع لديها في مهدها وتحول دون كامل عطائها . والادب من أبرز مظاهر الخلق والابداع : انه أيضا هناك ، في الجماهير الواسعة العريضة ، يفترف منهـــا الاديب الحق وحيه ورؤاه ، ويأبى الاديب الصادق أن يغترب عنها ، ولا يرضى الا أن تكون مواقعه مواقعها ومواقفه مواقفها . بل ان الاديب من خرج من صفوفها وتكوّن في الحياة المشتركة التي خاضها معها ، ثم رد اليها بضاعتها أدبا صافيا نقيا لا يصطنع بل يجود بما أخذ ، ولا ينحت من صخر بل يغرف من بحر ، ولا ينطق بلسانه بل ينطقه لسان الجماهير . والكلمـــة الطيبة كالشجرة الطيبة أصلها ثابت وفرعها في السماء .

أجل لا بد أن يكون للكلام رصيد والا كان لغوا ولهوا . ورصيد كلام الاديب معاناته لحيـاة الجماهير ومشاركته فيها واسهامه في تطويرها . والادب كالنقد يعاني مـــن التضخم شر معاناة ، ويفقـــد مثله قيمته عندما يجـاوز رصيده .

ان اقتران القول بالعمل أهم ما يميز بعض جـوانب الادب العربي القديم في جاهليته واسلامه . وان المعاظلة وفضول القول مما رفضه تاريـخ تطور الادب العربي . ولعل من أقوى مظاهر البلاغة والبيان في الادب العربي في كثير من عصوره وضع القول في موضعـــه السليم وتعبيره الدقيق عن سلوك معين او موقف معين . « اذا استطعت أن تجعل كلامك مثل التوقيع فافعل » : هذا شعار من شعارات الادب العربي . انـــه يوصي بالايجاز الذي يؤدي الى مطـــابقة اللفظ للمعنى ، والمعنى عمل وسلوك . أما الجنـــوح الى المعنى وتغليب الالفاظ على المعاني ، فمن سمات عصور التخلف في الحضارة العربية .

واذا كان من حق الادباء وواجبهم أن يتأسوا الماضي ، فلهم في أدب الرسول الكريم وأدب الصحابة وأدب الخلفاء الراشدين وأدب رجالات الدولة العربية الاسلامية مـن بعد ، قدوة حسنة . لقد كان أدبهم حقا تعبيرا مقتصدا عن موقف وعن عمل . هو أدب بليغ لانه تعبير صـادق دقيق عن موقف يفصح عن قيمة خلقيـــة أو فكرية أو انسانيـة .

وعصرنا هذا لا يقبل لغو القول . ان فيه من الاعباء الجادة والمهمات الضخمة ما ينكر فضول الكلم . ان التأثير في الاشياء وفي الواقع شعار المدنية الحديثة في شتـى الميادين ، ولا بد أن يكون شعارها في الادب . الادب شكل وشكل هام من القوى المحركة للمجتمع الدافعة له الـى

أمام . وأدبنا العربي أمامه من هموم أمته ومشكلاتهـــا ومطالبها ما يملأ وجوده ، وأمامه مـن المشكلات الجـادة ما لا يسمح له بأن يتلهى بسواها . أجل ، الادب جـد ، والادب يتفتح ويزكو جمالا وروعة وخلقا عندما يكون جادا . ليس الجمال نقيض الجدية في الادب بل هو خدينهـــا ووليدها . الجمال الحق يستقي روعته مـن الصدق ، الصدق مع الذات ومع الآخرين . انه جمال مشرق لانـه مقتصد غير مسرف ، ولانه مطبوع غير مصنوع ، ولانـه نزيه غير مصانع . انه نتاج طبيعي لمن رقى فـي معارج المشاعر الانسانية عن طريق احترامه لقيم الانسان الحقة وعن طرق سعيه لنشها وتعميق جذورها .

ونود ههنا ألا يحمل قولنا هـذا على غير محمله ، وأن يظن اننا نرى أن يحبس الاديب نفســـه في اطار موضوعات محدودة لا يتجاوزها تجنح الـى الموضوعات القومية والسياسية . فما ندعو اليـه في الواقع هو أن يرتبط الاديب بمجتمعه وبالانسانية من خلال مجتمعه وأن يعبر تعبيرا صادقا عن هموم ذلك المجتمـع وتطلعاته . وواقع المجتمع وتطلعاته ميدان رحب فسيح ، بل ميـدان يمكن التنويع والتفريع فيه دون ما حد . انـــه يشمل المشكلات الاجتماعية وما أكثرها وما أشد تنوعها وما أوثق اتصالها بمشكلات الانسان الفردية . وانه يضم المشكلات النفسية ــ الاجتماعية ، وهي أرض خصيب للتعرض الى ما لا حد له من العواطف والمشاعر الانسانية التي تحيـا وتتحرك في اطار مجتمع معين . وانه يشمل كل ما هـو لصيق برسالة الانسان على الارض ونظرته الى الكون من خلال مجتمعه وأمته . وغير ذلك كثير . ان تعرية بعض القيم الاجتماعية البالية مثلا لا يقل شأنا عن النضال في سبيل تطوير المجتمع وتحريره وتقدمه ، بل هـو جـزء من هذا النضال ، وان الدعوة الى تحرير المراة مـن رقّ أثقالها الاجتماعية التي تغلّ عطاء نصف الامة ليس أدنى شأنا من النضال في سبيل التحرر من العبودية السياسية والعبودية الاقتصادية . وان تنميـــة الذوق الرفيـع والاحساس الفني الرهيف جزء من العمل على اصـــلاح المجتمع وتقويم عوجه . غير ان الذي نؤكد عليه أن يصدر هذا كله لدى الكاتب عن شخصية متكاملة وعن نظـــرة فلسفية متآخذة ، وان يكون لكل نوع من النتاج مكانـــه وموقعه في صلب الحياة الاجتماعية وفي جملة المعركـة القومية التي هي ــ كما قلنا ونقول ــ معركة انسانية فـي الوقت نفسه . ويقيننا ان الاديب الذي يسقي حقا مـن معين انسان مجتمعه لا بد أن يلامس النضال في سبيـل تطوير ذلك المجتمع في أي موضوع يطرقـه ، ولا بد أن يصبّ عطاؤه حوله في رصيد المسيرة القومية . ولا نعني بذلك اصطناع الربط بين أي موضوع وبين حركة النضال الاجتماعي ، بل نعتقد ان هذا الربط لا بد أن يتحقق سهوا رهوا عفو الخاطر لمن تكاملت نظرته الـى مجتمعه وادرك دوره فيه واستمد أمثلته وشواهده من لحمـــه ودمه .

أولم يتذكر عنترة حبه لعبلة وهو في وسط المعركة :

ولقـد ذكرتك والرمـــاح نواهل
مني وبيض الهنـد تقطر من دمي
فوددت تقبيل السيوف لانهـــا
لمعـت كبارق ثغـرك المتبســـم

أولم يجد الشاعر القروي في حبه للفتاة الانكليزية « مود » مناسبة تذكره ارتباطه بقومه :

وحقـك يا مـود لـــولا ذووك
لما فـــرق الحب بين العبـــاد

الادب حياة ، والحياة كل متآخذ ، والاديب المبدع من سقى نتاجه من النظرة المتكاملة الى المجتمع والنـاس والكون . قد يغلب بحكم طبعه جانبا على جانب ، وقـد يغلب هذا الجانب حينا وذلك الجانب حينا آخر ، ولكنه في هذا كله وحدة من الفكر والنظرة والشعور ، يـرى رسالته الاجتماعية القومية الانسانية في كل شيء ويرى كل شيء في رسالته الاجتماعية القومية الانسانية . انـه قد يرى في زهرة الصباح تتفتح عن أكمامها تباشير الفجر لأمته ، كما قد يرى في شدو الطير حنين الشعب وانينه . قد تكون الامة عنده أنثى وقد تكون الانثى أمة ، وقد يكون النهر الجارف فورة قومه وجيشان شعبه ، وقد يكـون هديره زأرة العربي وقد ثار على المستعمر كما في قصيدة شهيرة للشاعر القروي .

ألم يقل « تولستوي » ان كل شيء متصل بكـــل شيء ؟ الابداع الحق هو الـــذي يعرف أن يلفّ الاشياء كلها في اطار نظرة واحدة موحدة لحمتها وسداتها انسان مجتمعه وقومه ، لا ذلك الانســـان الخيالي الذي خلت عروقه من نبض الحياة أو تقيحت دماؤه في أسن الاغتراب عن هوائه وتربته . ليس الادب عطاء مفصولا عن الزمـان والمكان ، وليست العاطفة الادبية أحاسيس مجردة تقيم في أطر خاوية . الادب ومجتمع زمان ومكان معين وجهان لحقيقة واحدة . وكل ما في الامر ان علينا ألا ننسى اننا نتحدث عن مجتمع مفتوح ولا عن مجتمع مغلق ، عـــن مجتمع يجاوز ذاته ويرقى بوجوده عن طريق اتصاله بعالم القيم ، وذلك العالم الذي هو دوما أمامنا وليس وراءنا ، يعدو أمامنا كالافق ونبدعه دوما ونجـــدده كما يبدعنا ويجددنا ، ونخلق من خلال هذا السعي الموصول انسانـا يزداد انسانية ويرقى في معارج الانسانية الى غير حد .

ان هذا التيار الادبي الذي ندعو اليه والذي ظهرت تباشيره ، حين يغرف من معين حياة الشعب في شتى أقطار البلدان العربية ، وحـــين يعبر عن تطلعات هذا الشعب ونضاله من أجل تجديد وجوده ، يكشف عـــن وحدة الثقافة العربية لدى الجمـــاهير العريضة واقعا وتطلعا ، ويؤكد وحدة الشعب العربي في نضاله على طريق معركة المصير الواحد . غير انه فوق هذا يجـــلو وحدة

الثقافة العربية من منظار آخر حين يكشف عن واقع هام : انه يبين كيف ان هذه الوحدة الثقافية تمتلك حقا أهم مقوّم لاي وحدة ، نعني الوحدة في اطار التنوع. فالمجتمع العربي الذي يصف شؤونه وشجونه يتبدى من خلال ذلك مجتمعا يتوافر له التنوع الذي يغني وحدته ويجعلها خصيبة . والوحدة العميقة كما نعلم ، سواء في الثقافة أو سواها ، هي الوحدة التي تتكون من تنوع الاجواء والتجارب وانماط الحياة ، ضمن اطار واحد شامل يجمع بينها . انها الوحدة من خلال التنوع ، وهو غير التعدد والانقسام بطبيعة الحال . كذلكم المجتمع العربي لمن عرف أن يجلو معالمه ويبرز قسماته : انه مجتمع يملك أرضية مشتركة من أنماط الحياة والسلوك والمشاعر ، غير انها تلبس تبعا لكل بيئة ، أزياء وأشكالا خاصة تزيد في اغناء الكل الذي تنتسب اليه . هذا الوجود العربي المتنوع في اطار الوحدة الموحد من خلال التنوع ، هو الذي تعمل التجربة الادبية الحية على جلاء صورته وكشف أبعاده . انها تفصح ، من خلال الالتحام الحي بهذا الوجود ، كيف تعمل صوره وأشكاله متناغمة متسقة في اطار اللحن الاساسي الذي يحكمها جميعا . انه يقدم عن طريق الاتصال المباشر الحي بالواقع ، الحجة الدامغة التي تدحض ادعاءات القائلين بتباين الحياة العربية وتباعد ألوانها وتناقض أنماطها . انه يظهر ان الحياة العربية لدى الافراد والجماعات ، على غنى أشكالها وألوانها ، تنضح بمشاعر واحدة وتعاني من مشكلات واحدة وتلتقي حول اهداف واحدة . انه يكشف عن ان وراء القشرة الظاهرة المشوهة التي ترين على الوجود العربي بحكم عوامل التخلف الطويل والاستعمار المديد ، واقعا حيا متشوفا يحمل تجارب الامة العربية في الماضي والحاضر ، ويحمل تطلعها وصبوتها الى حياة جديدة والى مصير واحد .

ذلكم ان الجوهر الاصيل للامة ثاو هناك ، هناك في اعماق حياة الكثرة الكاثرة من أبنائها ، وحين يلامس الاديب المبدع تلك الاعماق ويصل الى كنهها وقوامها ، يلتقي التقاء عفويا صادقا بذلك الجوهر ، ويكشف عن أصالته ووحدته وعمقه . عند ذلك تتكشف له وحدة الهموم والمشكلات ووحدة القيم والاهداف لدى القروي في قريته ، ولدى المزارع في حقله ، ولدى العامل في مصنعه ، ولدى الجندي في خندقه ، ولدى الطالب في مدرسته ، ويرى كيف تفصح هذه الانماط المتنوعة من الحياة عن مشكلات واحدة وتومىء بحلول واحدة بل يتكشف له قبل هذا لقاء هذه الصور من الحياة عبر الحدود والسدود في شتى أنحاء الوطن العربي مشرقه ومغربه ، ضاحكة من المسافات التي تباعد بينها ، متحدية تلك البنى المصطنعة التي تفرض عليها الانفصام والانقسام.

أجل ان وحدة الثقافة العربية وحدة ديناميكية متحركة لا ساكنة ، تتجلى قواها الدافعة المحركة وراء السطح الظاهر منها . والاديب الحق هو الذي يتصل بتلك التيارات السارية في الاعماق ، وبالمشاعر التي تعصف من داخل ، وبالومضات التي تبدد ظلمة الاقنعة الدخيلة ، ويحيا معها توفزها وتطلعها الى الانبثاق والظهور ، بل يستبق ذلك التطلع ويراه وهو في طريقه الى الانبعاث ويقبض عليه في حركته المبدعة المجددة .

ان حياة الشعوب لا تبنيها التراكمات السطحية والترسبات الطارئة ، بل تبنيها الحركة الداخلية الحية التي تصهرها وتصوغها صياغة جذرية شاملة . وتلك الحركة الداخلية الحية ، تلك الدفقة الحيوية التي تثور في الاعماق ، هي التي يقوى الاديب المبدع على الامساك بها وادراك منطلقها ووجهتها ومعناها. « أما الزبد فيذهب جفاء وأما ما ينفع الناس فيمكث في الارض » .

الاديب المبدع ، كأي انسان مبدع ، لا تخيفه المياه الآسنة التي تغزو وجود أي أمة بل يدرك ان النهر الجارف هو الذي يشق المسيرة ويغمر الارجاء ويزيل الزيف . ان وجود هذه البراكين الداخلية المتفجرة في أعماق الحياة العربية ، انى كانت وأين حلت ، حقيقة واقعة تجاوز كل وجود ظاهري زائف . والادب الاصيل هو الادب الموصل الى الاعماق ، المدرك لحركتها ، الراصد لتيارها المرهص بفجرها . والثقافة الحقة اليوم تقوم عند نقطة التلاقي بين الابداع وبين القدرة على التحريك ، بل هي حصاد التفاعل بينهما .

أما الاديب الذي يحسب الظاهر باطنا ، والدخيل أصلا وجوهرا ، ويخال الورم شحما ولحما ، والبثور والامراض العارضة بنية مقيمة ، فهو الذي لم يستطع أن ينفذ الى حقيقة الحياة والوجود ، ورضي بأن يكون أدبه صورة فوتوغرافية جامدة . وأي معنى للادب اذا لم يعرف النظرة الحادة النفاذة ولم يستشرف الواقع من خلال رؤية شاملة محيطة ، ولم يتحسس البذور النامية التي تحرك مسيرته .

من هنا تلك المسألة الزائفة ، مسألة الادب أيكون للعامة أو الخاصة ، للجماهير أو النخبة . فالادب جوهرا وتعريفا لا يمكن أن يكون شيئا آخر سوى أدب الجماهير. منها يستقي رؤاه واليها يرد نتاجه . ولا نقصد بالادب طبعا تاريخ الادب ، فلهذا شأن آخر ودور آخر لا ننكره حين يوضع في موضعه السليم . اننا نعني الادب الجديد الادب الخلاق ، الادب القادر على التعبير عن حياة مجتمع معين . اما الادب الماضي ، فهو عند الاديب المبدع ليس مجرد ارث تاريخي جامد أو مواقد انطفأت ولم تخلف سوى الرماد ، بل جمرات ما تزال مشتعلة في نفوس الناس يتوجب اذكاؤها عن طريق تجديدها . والادب القوي لا يرفض ذلك الارث المكتسب ، ولكنه يدمجه بالتجربة الحية ويتجاوزه . والادب المكتسب عنده نقطة ارتكاز وليس عائقا . الادب الحقيقي هو في آن واحد انفصال عن الادب المكتسب وتمثل وهضم نقدي له ، وهو بهذا المعنى ثورة .

ولا يتسع المجال للحديث عما تمليه مثل هذه الثورة الثقافية في الادب من اعادة نظر جذرية في مضمون تعليم الادب في المدارس وفي طرائقه. وحسبنا أن نشير عابرين الى مطلب واحد اساسي وهو أن يكون هدف هذا التعليم تنمية روح الخلق والابداع لا روح التقليد والاتباع ، عن طريق الاتصال الحي بمحركاتها ودوافعها ، نعني حياة المجتمع العربي ، بحيث يصبح الابداع الادبي ثورة لا تقل شأنا عن الثورة الاجتماعية والاقتصادية والسياسية ، بل ان هاتين الاخيرتين لا تقومان في الواقع بدون الثورة الادبية الثقافية .

* * *

وبعد ، هل استطعت حقا أن أتحدث عن دور الادب في وحدة الثقافة العربية ؟ لعل حديثي عما ينبغي أن يكون قد غلب على حديثي عما هو كائن . وهذا في رأيي أمر طبيعي ، فأي هدف بناء وليس اكتشافا . والثقافة العربية الموحدة هدف نبنيه وان كنا نعرف ان بذوره قائمة . نحن ندرك أوضح الادراك ان وحدة الثقافة لم تتأت لامة كما تأتت للامة العربية . فهي هناك تجأر وتجهر بصوتها . ولكن هل داخلنا الشك يوما بأن أي وجود مهما يكن قويا غنيا ، في حاجة الى تعهد وتطوير وتجديد ؟ الثقافة العربية الموحدة حقيقة قائمة دون شك ، والتيار الادبي الاصيل الذي أشرنا الى معالمه آخذ طريقه الى الاكتمال والنضج . ولكن هيهات أن ينسينا ذلك دورنا في اغناء هذا التيار الثقافي الموحد وفي تطويره وتعميقه . وهيهات أن ننسى ان هذا التيار الادبي الاصيل يغالب قوى دخيلة كثيرة ويشق طريقه عبر عقبات وصعاب ، بل كثيرا ما يشك فيه المشككون ويغمزون من قناته .

ان لهذا الملتقى معاني كثيرة ، ولكن لعل أبرز معانيه أن يظهر للملأ زخم هذا التيار الادبي الجاد ، وأن يتعاهد مرتادوه على كل كلمة سواء بينهم : أن يناضلوا من أجل نصرة هذا الادب نتاجا وتوضيحا وشرحا وتحليلا .

مزيفو الوجود العربي في الادب ، شأنهم في السياسة ، كثيرون. والمتخاذلون امام رسالة الامة العربية في شتى الميادين يفلسفون التخاذل ويبررونه . ولكن الرسالة بطولة ، والبطولة لفظا وتعريفا ما لا يأبه للصعاب. واذا كانت النفوس كبارا تعبت في مرادها الاجساد . ولم يبن الحضارة يوما مفسرو الفساد وشارحوه ومبرروه، بل يبنيها دوما وأبدا من يثبت زيفه وبطلانه بعمله وجهده وقدرته على الانفصال عنه .

وآداب الامم الحية كانت دوما السباقة الى بناء نهضتها ، وكانت المهاد الذي قامت عليه يقظة الامة وانبعاثها . ويا له من دور جليل : أن تجند الاقلام في سبيل البعث العربي المنشود ، في سبيل الامة العربية الواحدة ، ورسالتها الخالدة الى الانسانية ...

صدر حديثا :

الجبل الصغير

مجموعة قصص بقلم

الياس خوري

في خمس لوحات متكاملة ، ترسم مجموعة « الجبل الصغير » ، للكاتب اللبناني الياس خوري ، أفق رحلة لكتابة جديدة في القصة .

والحرب أو الموت ، كممارسة ابداعية من أجل تغيير العالم ، تنتقل الى موت في الكتابة نفسها وحرب في داخلها ، من أجل تغيير رؤيا العالم الذي يسقط ويعيد خلق نفسه في الثورة .

القصة هي نسيج لفعل تاريخي يمتد في علاقات الكتابة . لذلك تمتد القصة في القصص التي تأتي بعدها أو قبلها ، لتشكل عالما متكاملا يحاوله « الجبل الصغير » في بحثه عن الكتابة الجديدة .

منشورات دار الآداب